

# المدرسة بين رهانات الديمقراطية

## وإعادة الإنتاج الاجتماعي

د. فوزي بن دريدي

مخبر الشباب والمشكلات الاجتماعية جامعة سوق أهراس - الجزائر

# Paris scolaires entre la démocratie et la re-production sociale

*Fawzi Bendridi*

*Laboratoire des Jeunes et des problèmes sociaux*

*Université Souk Ahras – Algérie*

L'école joue un rôle important dans la socialisation, fonction que lui confie la société par le biais de la transmission des valeurs selon une diversité d'origine économique et culturelle et sur un mode particulier chez les enfants et les jeunes en général. L'apprentissage des valeurs, quant à lui, et qui est un apprentissage de la tolérance et de la fraternité, de coopération et d'autres valeurs, est une originalité décisive de l'Ecole. Dans cette vision, notre intervention essaye de répondre à la question principale suivante: comment l'apprentissage des valeurs de la démocratie s'effectue-t-il avec la re-production sociale ?

الملخص

تلعب المدرسة دورا مهما في التنشئة الاجتماعية، وهي بذلك موكلة من المجتمع بقيام بمهام أساسية في إعادة إنتاج القيم الاجتماعية المختلفة وتوزيعها ضمن فضاءات المجتمع و أنساقه. إن للمدرسة أدوار مهمة في تعويد الديمقراطية لدى الأطفال والشباب بشكل عام، وهي تعلمهم قيم التسامح والإخاء والتعاون وغيرها. غير أن هناك نظرة سوسولوجية ترى بان المدرسة لم تعد تقم بأدوارها الأولية و أصبحت تتجه أكثر نحو ضمان إعادة إنتاج

التوزيع الاجتماعي ضمن هذه الرؤيا تحاول مداخلتنا الإجابة عن التساؤل الرئيس التالي:  
كيف توفق المدرسة في مهامها في نشر الديمقراطية ضمن رهانات إعادة الإنتاج الاجتماعي؟

## أزمة النسق المدرسي:

### مظهر للا ديمقراطية المدرسية

تعد المدرسة الفضاء الأمثل لتنشئة الأفراد على قيم تقبل الآخر والحوار وهي بذلك الحاضنة الرئيسة التي يعول عليها المجتمع للتأسيس للمجتمع الديمقراطي الذي تتعايش فيه كل المرجعيات ضمن مشروع مجتمعي واضح المعالم ومتفق عليه بين الجميع

في مقابل هذا "الحلم" هناك واقع يومي معاش بين الجميع، واقع يفرض منطقه بحيث أن كل ما يوجد "خارج" المدرسة متوزع ضمن فضاءات ترتبط بمصالح اقتصادية وثقافية وحتى إيديولوجية

ولنا أن نقول أنه لا يوجد مجتمع لا يشتمل على تنظيم يحدد الفئات الاجتماعية "الغالبية" وتلك "المغلوبة"، تسعى فيها الأولى للتمكين لتصورها ضمن الفضاء الاجتماعي وتعمل الثانية جاهدة للتموقع بشكل يمنحها مكانة اجتماعية لائقة.

إن التحدث عن إعادة الإنتاج الاجتماعي يحيل مباشرة إلى نوع من الحتمية الاجتماعية المحملة بإيديولوجية واضحة المعالم، نحن لن نتموقع في تحليلاتنا ضمن إيديولوجية رفضية عدمية بل سنحاول أن نستوضح إلى أي مدى يمكن التفكير في بناء نموذج قابل للحياة في مجتمعاتنا العربية - خاصة - يضمن التوجه نحو مدرسة تؤمن بقيم إنسانية أساسية تعمل على تغيير أنماط من التفكير الإقصائي والأحادي السائد في العديد من مجتمعاتنا.

قبل ذلك علينا أن نتلمس بعض الاختلالات التي تعيشها المدرسة العربية راهناً. على المستوى الميكرو سوسيولوجي تتضح الأنساق الداخلية للمؤسسات التربوية العربية بشكل عام مهترئة - ليس بشكل تعميمي طبعاً - حيث تتضح بنية القيم المدرسية وقد تحولت وتبدلت من تقديس المعلم - ضمن البنية السوسيولوجية

التاريخية الماضية-إلى تقديس النفعية المباشرة. كما تتضح البرامج التربوية في مدارسنا وقد أصبحت عبئا ثقيلا على الطالب والمعلم مع تركيزها على المبدأ الحفظي أكثر من تشكيلها نواة تفكير منطقي نقدي يتجاوز الأفكار المسبقة والأحكام القيمة الاجتماعية الذي يعتبر-التفكير النقدي- من الأسس الأولى الذي تبني شخصية الطفل المستقل والإنسان- المواطن.

أضف إلى ذلك فإن طرائق التدريس تظهر بشكل عام نمطا من الانغلاقية والتوجيهية والتقديسية التي تدور حول المعلم والأستاذ ولا تترك مجالاً للشك والنقد والمحااجة الفكرية وهنا يتضح ان النمط الأوتوقراطي الممارس في مدارسنا ماهو إلا نمط من عقلية اجتماعية سائدة تقديس شيخ القبيلة والزعيم تقديسا مرضيا لا يقبل النقاش او المجادلة. مظهر داخلي مهم يعبر عن "أزمة" المدرسة في مجتمعاتنا العربية، وهو انتشار ظاهرة المدارس الخصوصية التي أصبحت نظاما بديلا عن النظام الرسمي في بعض البلدان

ففي الجزائر مثلا هناك انتشار كبير جدا للدروس الخصوصية التي أصبحت مجالاً "للتباهي الاجتماعي" بمكانة اجتماعية متميزة ضمن الحقل الاجتماعي.

تقليديا لم تكن الأسرة الجزائرية قادرة على التنافس على الأماكن خارج المدرسة، ومع تحسن الوضع الاقتصادي النسبي للأسر أصبح التنافس على إيجاد مكانة من خلال إيجاد مكان في الأقسام الخاصة أمرا حيويا لإبراز صورة مثالية عن الأسرة كما لعبت الإضرابات المتكررة التي شهدتها المدرسة الجزائرية في السنوات الأخيرة عاملا مهما في تفسير لجوء الأسر الجزائرية إلى الدروس الخصوصية على الرغم من ارتفاع تكلفتها\*

---

\*-تختلف تكلفة الدرس الخصوصي حسب المستوى التعليمي وحيوية السنة التي سيمتنح فيها الطالب، كما يلاحظ أن تكلفة الدروس الخصوصية ترتفع في المدن(لكثرة الطلب عليها) وتنخفض في الأرياف والمدن شبه الحضرية.وهو مجال للتفكير السوسولوجي في هذا التباين الذي يرجع الى الوضعية السوسيو مهنية والسوسيوجغرافية للأسر الجزائرية.

وهو ما يقودنا الى اعتبار أن تغير القيم خارج المدرسة (المجتمعية) أثر بشكل رئيسي في منظومة القيم التي تحكم النسق المدرسي الداخلي يمكننا تقديم الأطروحة التالية :

انتشار الدروس الخصوصية بقوة (من ناحية الكم) وبكثافة (الفئات الاجتماعية المختلفة) داخل المجتمع العربي بشكل عام هو نتيجة للالتكافؤ في الفرص -الذي يمثل المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه المدرسة-

ودليلنا على ذلك أن هناك فئات اجتماعية تنتهي إلى الطبقات الدنيا (والتي تتوزع على فئات سوسيو مهنية متنوعة) أصبحت خارج اللعبة<sup>+</sup> بحيث أن مركزها الاجتماعي لم يعد يؤهلها للمنافسة على كعكة النجاح المتوافرة في نهاية كل سنة<sup>+</sup> إن المساواة التربوية هي في العمق تعبير عن "إمكانية متاحة، أمام الأطفال كافة، من اجل الحصول على تعليم متكافئ يتكيف مع استعداداتهم العقلية الخاصة، وذلك بشكل مستقل عن تأثير الشروط الاجتماعية الخارجية :كالوضع الاقتصادي والاجتماعية لعائلاتهم"<sup>§</sup>

وبهذا، فإن التميز التربوي المرتبط بالخلفية السوسيو مهنية للأولياء هو في الواقع خروج عن هذا المبدأ الذي يرهن العمل التربوي ويستبعد فئات اجتماعية عريضة من الانتفاع من المدرسة التي هي أداة المجتمع لتحقيق المواطنة الفعلية

---

<sup>+</sup>من الأسس الأولية التي تقوم عليها المدرسة إتاحتها للفرص المتكافئة أمام كل الفئات الاجتماعية للحراك الاجتماعي وهو ما يصبح مثار الشك أمام تزايد النجاح المدرسي في ارتباط بكم الساعات التي يأخذها الطالب خارج المدرسة كدروس للدعم أو دروس خصوصية.

<sup>+</sup>من الملاحظات السوسولوجية التي نسوقها هنا أيضا أن الفئات الاجتماعية التي لا تعتمد على الدروس الخصوصية والتي قد يفلح أبناؤها بالنجاح في البكالوريا مثلا، تكون معدلات نجاحهم هي الدنيا مما يؤثر فيما بعد على اختياراتهم للتخصصات في الجامعة والتي تتوزع هي أيضا حسب التقدير الاجتماعي لبعض التخصصات التي تعتبر نبيلة(والتي تحتاج إلى معدلات مرتفعة جدا) وتخصصات أخرى غير مرغوبة اجتماعيا والتي تستقطب إليها باقي الطلبة الذين يعتبرون "فاشلين" اجتماعيا

§ - Miliaret Gaston, *Vocabulaire de l'education: Education et sciences de l'education*, Paris, P.U.F., 1979, (P199).

## المدرسة وحتمية إعادة الإنتاج الاجتماعي

عالج الكثير من علماء الاجتماع - وخاصة بورديو-مسألة عمل النظام الاجتماعي على إعادة إنتاج نفسه عبر بوابة المدرسة، والتي اعتبرت مجرد "قناة" تمر عبرها المصالح الاجتماعية والاقتصادية للطبقات المهيمنة هذه "الحتمية المزعجة" تجعل من الخطابات الموجهة للمدرسة-والتي تعتبرها مستقلة وحررة وفضاء للتنشئة الاجتماعية-مجرد أوهام ترسخ الأفعال الأصلية في إستغناء المجتمع

ولكن هل فعلا تعمل المدرسة على إعادة إنتاج النظام الاجتماعي؟ في الظاهر وبشكل مباشر تعتبر المدرسة مؤسسة للتنشئة على قيم الديمقراطية- في الغرب- وعلى قيم الوطنية والانتماء -عند العرب- وهي بذلك غير مرتبهة تماما لأية تبعات مصلحة ضيقة أو إيديولوجيات فئوية، بل هي مؤسسة ملك "للمجتمع" ولكن من هو المجتمع في النهاية؟ أليس التحدث عن "المجتمع" -بالمطلق- هو تحجيم الخطاب إلى مستويات "تبرئة" المؤسسة المدرسية من كل أفعال أو ممارسات قد تقود إلى اعتبارها مؤسسة قامت على تصور من يملك القوة والمال والإعلام؟ هذه التساؤلات الواقعية هي التي تثير في الحقيقة أزمة في أذهان أفراد "المجتمع" الذي يتم التحدث باسمه.

واقعيلا توجد ممارسات "بريئة" سواء في الإعلام او في المدرسة او في أي مؤسسة اجتماعية، لا يمكن تصور وجود فعل موجه نحو مؤسسات تملك كل هذه القوة بدون اعتبار أن ذلك الفعل في النهاية يضم شئنا ما مرتبط بالرغبة في استغلال القوة لصالحه

ولكن هذا الانشغال المعرفي قد يقود -إذا تعمقنا فيه أكثر- إلى التفكير في خلق نظام لا مدرسي كما نادى به بعض العلماء. انه اليأس من إمكانية إصلاح المدرسة أو تغيير مسار عملها لتصبح مؤسسة تقدم فعلا تكوينا ينمي الأبعاد العاطفية

والسلوكية والمعرفية للطفل بغض النظر عن مكانته الاجتماعية أو أصوله الثقافية والدينية

في تصورنا الكشف عن الأدوار الخفية للمدرسة قد يقود إلى مسلكين هامين:  
1-المطالبة بإلغاء المدرسة كمؤسسة للتنشئة الاجتماعية في المجتمع وتعويضها  
بنسق آخر يقوم بنفس الدور

2-إطلاق مجال للتفكير الجماعي-العالمي-حول دور المدرسة في المجتمعات  
وتصورات المؤسسات الاجتماعية المختلفة لها وآليات اشتغالها ومسارات عملها  
اعتقد ان المسلك الثاني هو الأكثر واقعية، ذلك ان المدرسة بتاريخيتها وأهميتها لا  
يمكن ان تستبدل بنظام آخر يمكن ان يحقق الأهداف الأولية الذي أنشئت من  
أجله

ولكن يجب في نفس الوقت منح مجال لإعادة تصور مدرسة أكثر انفتاحا على  
كل الفئات الاجتماعية، يجب ان يتم تقويم المدرسة بشكل مستمر وبطريقة أكثر  
موضوعية وحرية من طرف الباحثين والعلماء

لا يمكن تصور ان تبقى المدرسة خادمة لفئات اجتماعية مهيمنة تفرض  
قيمتها على باقي الفئات الاجتماعية، يجب تحقيق الديمقراطية أولا في التصور  
الموجه نحو المدرسة قبل مناداة المدرسة بأن تقوم بدورها الديمقراطي. يجب  
القيام بثورة صغيرة في النظرة للمدرسة في العالم ككل، بحيث علينا تجاوز فكرة  
غما ان تكون المدرسة مدانة او بريئة، بمعنى إما انها مؤسسة لإعادة الإنتاج  
الاجتماعي الحتمي، أو أنها مؤسسة حرة بشكل مطلق. في كلتا الحالتين المدرسة لم  
تأخذ مكانتها المهمة على الساحة الاجتماعية

### الديمقراطية المدرسية: الواقع والأفاق

لا يمكن الحديث عن قيم الديمقراطية المدرسية دون الحديث عن  
الديمقراطية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، فالمدرسة هي نتاج  
المجتمع وتخضع للسياسات الرسمية المحددة لمهامها، كما تخضع -ولاشك-  
للأعراف الاجتماعية والانتظارات الاجتماعية منها أيضا

الديمقراطية المدرسية تقتضي في جوهرها توفير الحرية- و إذا استعرنا تعبير جون ديوي فهي الحرية الايجابية التي تتضمن تحقيق الذات- التي توفر" للتلميذ- الطفل-المراهق" المنطلقات الأولى للتعبير الحر عن الأفكار والمعتقدات والاتجاهات دون وصاية او توجيه إيديولوجي مغلق

في الواقع العربي هناك إشكالية بناء ديمقراطية اجتماعية واضحة المعالم، مما انسحب على الدور الذي تقوم به المدرسة، ففي دراسة أجريت في الكويت- مثلًا- تبين انخفاضاً كبيراً في التفاعل الديمقراطي بين الطلبة والمدرسين، ومحور القيم الديمقراطية، ومحور حقوق الإنسان، وأوضحت الدراسة ان درجة التفاعل الديمقراطي % 45 بينما بلغت درجة حقوق الإنسان % 50.59 أما المحور الخاص بالقيم الديمقراطية فقد بلغت درجته المئوية % 45.5 وبلغت الدرجة المئوية للمقياس. على المحاور جميعها % 47.3 وهذه النسب تدل على تقارب كبير بين المحاور الثلاثة، وهي تدل على انخفاض في مستوى الممارسات الديمقراطية في المدرسة الكويتية\*\*.

نعتقد أن الديمقراطية المدرسية ترتبط ببنية النسق الاجتماعي الذي حدد أدوارها والسؤال المهم في الحالة العربية هو: ما هي الغايات التي تسعى الأنظمة التربوية الوصول إليها؟

نزع أن معظم الأنساق التربوية في العالم العربي اتبعت مرجعيات ايديولوجية غير واضحة المعالم تسبح تارة في مجال إرساء "الديمقراطية" وتارة أخرى في إرساء قيم "الوطنية" وتارة أخيرة في تعميم سلوكيات احترام القوانين والأنظمة بهذا المعنى فإننا نعتقد أن غياب المشروع المجتمعي في العالم العربي أثر في بناء نموذج المدرسة المتوافق عليه اجتماعياً، والذي أنتج بدوره دورانا دراكاماتيكية

---

\*\* - الدكتور خالد الرميضي: الممارسات التربوية الديمقراطية في المدرسة الكويتية (أراء عينة من طلبة الصف الرابع الثانوي في دولة الكويت) مجلة جامعة دمشق- المجلد - 26 العدد الرابع- 2010- ص 155

حول تجارب فاشلة أثرت بدورها في مسار تمثل القيم الديمقراطية لدى الطفل العربي،

لهذا، فإننا نرى أن عملا كبيرا ينتظر أصحاب القرار والباحثين العرب فيما يخص بناء نموذج ديمقراطي مدرسي، لعل ملامحه تبدأ من تدعيم الأطر التالية

- 1- إعادة صياغة النظرة الفلسفية للمدرسة بحيث تصبح من مؤسسة خادمة لقوى اجتماعية معينة إلى مؤسسة خادمة للمجتمع
- 2- النظر للمدرسة باعتبارها نسقا استراتيجيا وحيويا يمهد لبناء منظومة فكرية ومعرفية و أخلاقية تمنح الوسائل لتعميم قيم الحوار وتقبل الآخر والتعاون بين أفراد المجتمع مما يسهل مستقبلا بناء مجتمع ديمقراطي
- 3- تدعيم-وبقوة-الكفاءات النقدية للطلبة وتشجيع استقلالية شخصيتهم

#### الخاتمة

المدرسة راهنا تحتاج الى إعادة قراءة متعددة المداخل والمسالك البحثية، تحتاج إلى قراءة تشريحية داخلية تسأل في مدى أدائها ووظائفها الرئيسية في نشر الوعي بالقيم العالمية والإنسانية من حوار وتفاهم وتسامح المدرسة أصبحت تعيد إنتاج التوزيع الفئوي أكثر من إعادة إنتاج القيم المثالية في المجتمع، حاول هذا المقال أن يطرح مؤشرات عن تأزم الفعل المدرسي، ومجالات ممكنة للتفكير في تجاوز تلك الأزمة من خلال التركيز على التعاون البحثي بين النخب الأكاديمية للتفكير الجدي في إعطاء دفعة قوية للمدرسة للقيام بمهامها الأولية.



*Fawzi Bendridi*

فوزي بن دريدي

مدير مخبر الشباب والمشكلات الإجتماعية بجامعة محمد الشريف مساعدي سوق أهراس. عميد سابق لكلية العلوم الإجتماعية والإنسانية. رئيس فرقة بحث حول العنف المصغر: دراسة ميدانية في ولايات من الجزائر، البحث تم تحت إشراف المركز الوطني للبحوث في الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. شارك في العديد من المؤتمرات الدولية وهو منسق للمؤتمر الشمال إفريقي التركي للعلوم الانسانية. أَلَف العديد من الكتب في مجال التربية وعلم الإجتماع وهو عضو محكم في العديد من المجلات الجزائرية؛ كما كتب العديد من المقالات في المجلات الدولية المحكمة.

**Fawzi Bendridi** est le Directeur du Laboratoire des jeunes et problèmes sociaux à l'Université de Mohammed Sharif Souk Ahras. Ancien doyen de la Faculté des sciences sociales et humaines. Directeur du Groupe de recherche sur les micro-violence : une étude de terrain en Algérie, la recherche a été sous la supervision du Centre national de recherche en anthropologie sociale et culturelle. Il a participé à de nombreuses conférences internationales et est le coordinateur de la conférence d'Afrique du Nord. Il a publié nombre de livres dans le domaine de l'éducation et la sociologie